الدين الشعبى فى مصر
نقد العقل المتحايل

د . شحاتــه صيـــام

رامتان ، الإسكندرية ، ١٩٩٥

٢١٩ صفحة

عنوان هذا الكتاب يعطى إيحاء بأن مؤلفه بصدد مناقشة للمعتقدات الدينية غير الرسمية ، أى تلك التى يؤمن بها العامة من الناس دون أن يكون لها حظ كبير من التمثيل فى المؤسسات الدينية ، الإقتنائية والتعليمية .

غير أن قراءة الكتاب تكشف أن مؤلفه قد حصر جهده فى دراسة الحركات والفكر الصوفيين ، ومع أن تصنيف الصوفية فى خانة الدين الشعبى هو من الأمور المقبولة والشائعة على نطاق واسع ، إلا أن اختزال الدين الشعبى إلى التصوف قد لا يكون مقبولا بنفس الدرجة . فالدين الشعبى يشمل فئة واسعة من الممارسات والمعتقدات التى قد تتقاطع مع التصوف ولكنها بالتأكيد لا تتطابق معه .

يدرس الكتاب ظاهرة التصوف كجزء من ظاهرة عامة هى ظاهرة الدين ، وتعد المقدمة والأقسام النظرية من الكتاب بتناول هذه الظواهر من منظور وظيفى . فالكاتب ينتقد اختزال دراسة الدين إلى مجموعة من الطقوس والشعائر بما يحصر الدين فى المجال الميتافيزيقى، ويدعو بدلا من ذلك إلى النظر للدين باعتباره تعبيرا عن الضمير الجمعى ومساهمًا فى تأدية عدد من الوظائف أهمها إمداد الجماعة بمجموعة من القيم المرجعية وتوفير أداة للضبط الاجتماعى عبر تحديد المرغوب وغير المرغوب من أشكال السلوك الاجتماعى ، وبهذا المعنى فإن الدين يلعب دورا مهما فى رسم حدود الشخصية الفردية person-ality عبر مجموعة القيم السائدة والطقوس التى تجرى ممارستها .

يتبنى المؤلف رؤية للتصوف يراه بمقتضاها على أنه إيديولوجيا بمعنى أنها "خطاب منفصل عن الواقع وخبراته أو يحمل زيفا وطابعا مناهضا للحقيقة" . وبالفعل فإن كل إيديولوجيا هى وهم بمعنى أنها تمثل مفارقة للواقع ، ولكن المشكلة مع الطريقة التى وظف بها الكاتب هذا التعريف هى أنه ركز على مشارقة الرؤية الصوفية للإسلام الرسمى ، خاصة للإسلام السنى ، باعتبارها النوع

من الوهم الذى تنطوى عليه الصوفية . فبالرغم من أن الكاتب يقدم عدة تمييزات بين الدينين الرسمى والشعبى، فإن التمييز الذى يغلب على الكتاب هو القول بأن الصوفية هى رؤية مشوهة للحقيقة الدينية كما تعكسها أفكار الإسلام السنى الرسمى . وعلى حد تعبير المؤلف فإن الدين الرسمى يقوم على "اتباع الكتاب والسنة" بينما الدين غير الرسمى على "التعبد عن طريق الوجدان والتعاليم الروحية عن طريق وسيط يتجسد فيه الصلاح والكرامات . "أكثر من هذا أن الكاتب يتجاهل أن الدين ، أى دين بما فى ذلك الإسلام السنى ، هو رؤية للعالم ، ومن ثم فإنه أيضا ايديولوجيا ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من الإيديولوجيات . وبالتالى فإن مفارقة التصوف ، باعتباره إيديولوجيا ، لإيديولوجيا أخرى لا يفتح فى حد ذاته بابا لنقد التصوف .

ويشرح المؤلف كيف أن الإنتماء لجماعة ما هو إحدى الآليات التى من خلالها يجرى تكوين الجماعات الدينية وغيرها من الجماعات التى تعين إنتماءات الأفراد وهوياتهم . فالإنضمام للطرق الصوفية - حسب الكاتب - هو ممارسة شائعة ، خاصة بين الطبقات الفقيرة ، تحدث نتيجة الأفراد لكى يكونوا جزءا من جماعات تسهل لهم التعامل مع عجزهم عن تلبية حاجاتهم وأيضا الإفلات من هيمنة المؤسسة الرسمية . ومع هذا فإن الكاتب فى مواضع لاحقة من الكتاب يتجاهل هذا المنهج الوظيفى منتقدا الجماعات الصوفية التى نشأت داخل المجتمع الإسلامى الأكبر بسبب ما نتج عن تكون هذه الجماعات من تفتيت للمجتمع . فحسب قوله "فإذا كان الدين - أى دين - يعمل على سيادة الوحدة والتكامل ورتق التناقضات ، فان مقولات الصوفية تجافى تلك الحقيقة ، لقد قوضت ممارسات الصوفية هذه الوحدة ، وعملت على تدعيم ذاتها بشكل خاص من التنظيم والسلوك وحتى الطقوس" (ص١٤) . ويتسم هذا النقد بطابع قيمى واضح يتناقض مع التحليل السوسيولوجى الذى وعدنا به الكاتب فى بداية بحثه . وتكرر مثل هذه الأحكام القيمية الى درجة أنها تطبع العمل كله بروح غير علمية ، فنجد الكاتب مثلا يصف فكر التصوف بأنه "إنقطاع عن العقل الإسلامى أو الذهنية الصحيحة" (ص ١٧) ، إو وصفه لبعض "الشطحات" الصوفية بأنها "ليست أصيلة فى التراث الإسلامى" (ص ١٨٤) ، وأنها "تبتعد عن جادة التفكير الإسلامى وصوابه" (ص١٩٨) . إن تورط الكاتب فى أصدار أحكام من هذا النوع تتضمن وصف فهم معين للإسلام - يفهم من السياق أنه الفهم الرسمى - بأنه صحيح، بينما يصف التفسير الصوفى بأنه غير صحيح ، هو إنزلاق للأحكام القيمية التى كان حريا بالكاتب أن يتجنبها . فأحكام من هذا النوع لا تختلف كثيرا - من حيث منطق إصدارها - عن أحكام التكفير التى تصدرها الجماعات الدينية المتطرفة ضد المخالفين لها فى الرأى .

و تبلغ مفارقة الكاتب للمنهج الوظيفى الذى تبناه فى بداية الدراسة أقصاها عند تناوله لعدد من النصوص الصوفية بالإضافة إلى عدد من المقابلات التى أجراها مع بعض شيوخ الصوفية ، ففى هذا القسم يتبنى المؤلف منهجا تحليليا تركيبيا يعوزه الإنضباط ، وتظهر أمثلة ذلك أكثر اتضاحا فى مناقشة لنص كتاب "شراب الوصل"الكتاب الأساسى للطريقة البرهانية. فالمؤلف يصف الخطاب الوارد بالكتاب بأنه "تسيطر عليه حالة من انعدام الوعى والشعور ، تلك الحالة التى تلغى بها اعتبارات العقيدة الإسلامية التى ترى أن الله واحد لا شريك له" (ص ١٨٦) ويتهم البرهانية بالتالى (ص١٩٩) بأنها حولت "العقيدة الإسلامية إلى نوع من التفكير الخرافى أو الوهمى" .

المشكلة الرئيسية فى هذا الكتاب ، وغيره من الكثير من الكتب التى تتناول الطرق الصوفية ، هو أنه لم يستطع الهروب من سيطرة تصورات ذهنية نمطية stereo types حول التصوف

والمتصوفة والطرق الصوفية . والمدهش أن المؤلف فى هذا الكتاب قد وقع تحت تأثير نوعين من الصور النمطية المتناقضة عن الصوفية . النوع الأول هو ذلك الذى تعودنا على رؤيته عند المفكرين من الأصوليين ، والذين مالوا لإتهام المتصوفة بالخروج عن الإسلام بسبب بعض المعتقدات الصوفية ، خاصة الحلول ، والإتحاد ، التى رأى فيها البعض مخالفة لمبادئ الإسلام فى التوحيد والتنزيه . أما الصورة النمطية الأخرى التى نرى أثراً لها فى هذا الكتاب فهى تلك التى اعتاد أن يتبناها المثقفون العلمانيون التحدثيون والتى لم تر فى التصوف سوى هروب من مشكلات الواقع ، واستعاضة بالخرافة عن المعرفة العلمية ، ونتيجة لسيادة الجهل والتخلف ، وقد تبنى الأصوليون من أنصار جماعات الإسلام السياسى رؤية مشابهة ، فبالإضافة إلى الإتهام بالخروج عن صحيح الدين على مستويات الممارسة والإعتقاد ، فقد أخذ الأصوليون على الطرق الصوفية الإنعزال عن العمل السياسى ، واتهموها بناء على ذلك بالبعد عن الإسلام الصحيح الذى - فى رأيهم - لا يعرف تمييزا بين الدين والسياسة ، وهو نقد ينسجم مع الإتجاه لتسييس الدين الذى تتبعه جماعات الإسلام السياسى . ووجه التناقض بين التصورين النمطيين هو أن أولهما ينتقد الصوفية على أسس نصوصية إعتقادية ، بينما ينتقدها الثانى على أسس سوسيولوجية تدعى العلمية . وجمع هذين النقدين فى رؤية واحدة للتصوف هو أمر لا يخلو من غرابة .

و يمكن انتقاد هاتين الرؤيتين للتصوف على عدد من المحاور ، فالتدين كظاهرة يرتبط بعدد من المتغيرات الإجتماعية كما يذهب النقد السوسيولوجى للتصوف . ولكنه أيضا يرتبط بمتغيرات أخرى غير سوسيولوجية . والمقصود هنا هو الأبعاد النفسية والمعرفية للتدين . فالطمأنينة والثقة اللتان يمنحهما التدين للمؤمنين هما من الإحتياجات المهمة لكثير من - وربما لأغلب - البشر . ولا يرتبط هذا بالضرورة بعجز الأفراد عن السيطرة على مقدرات حياتهم الإجتماعية ولا بعجزهم تجاه الظواهر الطبيعية ، وإن تأثر بكل ذلك. فالحاجة للتواصل مع الكون الذى نعيش فيه وفهمه وحل ألغازه هى حاجة أصيلة فى البشر . وتتأثر إستراتيجيات البشر لتلبية هذه الحاجات بعدد كبير من العوامل التى مازال جانب كبير منها مستعصيا على الإدراك والتناول العلميين .

على المستوى الوظيفى ، إذن ، فإن الدين - كما ذهب المؤلف - يلعب دورا مهما كأداة للتنظيم والضبط الإجتماعيين . ولكنه إضافة إلى ذلك يلعب دورا مهما كأداة لمساعدة الأفراد على التوازن النفسى . وهذا البعد الأخير قد تعرض لقدر غير قليل من إهمال الباحثين ، خاصة فى الوطن العربى . وليس من قبيل المغامرة القول بأن هناك بعدا نفسيا مهماً فى ظاهرة التدين ، وهو ذلك البعد الذى يجعل بعض الأفراد ، وبشكل مسبق ، أكثر انفتاحا على المشاعر الدينية من غيرهم ، والأرجح أن العوامل التى توفر مثل هذا الإستعداد لدى الأفراد شديدة التنوع والإختلاف بين حالة وأخرى، وكما تلعب مثل هذه العوامل المفترضة دورا فى تهيئة الأفراد للإرتياح لاختيار التدين بشكل عام ، فانها أيضا تلعب دورا فى تهيئتهم لأشكال مختلفة من التدين . والتدين الصوفى الذى يركز على محاولة التواصل المباشر مع خالق هذا الكون ، كما تعبر عنه مفاهيم مثل الحلول ان والإتحاد هى أحد أشكال التدين ، إن محاولة البعض من المثقفين العلمانيين ، وأيضا من الأصوليين ، إكراه أتباع الطرق الصوفية على اتباع أشكال من التدين غير الملائمة لهم بدعوى مخالفة التصوف لصحيح الإسلام ، أو بدعوى تأثر أو حتى تطابق ، التصوف مع الجهل والخرافة ، هو إهمال للبعد النفسى - الفردى للتدين ، وهو يعكس نزوع المثقفين العرب للوصاية على أبناء الأمة ، خاصة على البسطاء منهم ويعكس أيضا نزعة لتجاهل حق الأفراد فى اختيار اشكال التدين التى تلائمهم ، وأيضا فى اختيار الأشكال الملائمة للتعبير عن معتقداتهم .

عرض : جمال عبد الجواد